

التبادل بين جوابات الشرط في القرآن الكريم

بدر عبدالعزيز مجر المرشدي*

جامعة شقراء

<https://www.ub.edu.sa/web/dsr/08/04>



*أستاذ النحو والصرف المشارك جامعة شقراء، وكييل كلية إدارة الأعمال للشؤون التعليمية. -عضو هيئة تدريس في جامعة شقراء له العديد من الاهتمامات البحثية في مجال تخصص النحو والصرف ودلالاتها النحوية والصرفية، وتحليل النصوص.

إيميل الباحث: balmorshdy@su.edu.sa

كود البحث: 2013

تاريخ استقبال البحث: ٣ نوفمبر ٢٠٢٠ م

تاريخ النشر: ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٠ م



مجلة جامعة بيشة
للعلوم الإنسانية والتربوية

التبادل بين جوابات الشرط في القرآن الكريم

بدر عبدالعزيز مجر المرشدي

—

الملخص: يحاول هذا البحث أن يقدم تحليلاً لتبادل جوابي شرط من الجملة الاسمية التي تفيد التحقق والثبوت إلى الجملة الفعلية التي تفيد التجدد والاستمرار والحدوث ومن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في سياق لغوي واحد، والوقوف على الفروق الدلالية والقيم التعبيرية الناتجة عن هذا التبادل، ومدى اتساقه مع القواعد المقررة عند النحاة، ولا شك أنّ تبادل جوابين في تركيب شرط متجاورين يدل على قيمة تعبيرية عالية ومقصودة.

الكلمات المفتاحية: الشرط - الجواب - التبادل - الجملة الاسمية - الجملة الفعلية

Title: The Exchange between the Conditional Responses in the Holy Qur'an

Abstract: This study attempts to provide an analysis of the exchange between the conditional responses of nominal sentences that state validation and stability and the verbal sentences that demonstrate renewal, continuity and occurrence and the exchange from the verbal sentence to the nominal sentence in a single linguistic context. It also tries to identify the semantic differences and expressive values resulting from this exchange, and the extent to which it is consistent with the grammarians' established rules, and there is no doubt that the exchange of two answers in two adjacent conditional responses is an indication of a high and intentional expressive value.

Key Words: condition – answer – exchange – nominal sentence – actual sentence

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً. فالقرآن الكريم هو دستور الله الخالد ومنهجه القويم وطريقه المستقيم، وحجة رسوله الكريم التي تحدى بها العرب والعجم والإنس والجن إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ومن ثم كان هذا الكتاب معيناً هذه الأمة الذي لا ينضب، ومنهل لغتها الذي لا ينفد، فلقد قامت العلوم اللغوية والنحوية والبلاغية والشرعية تدور في فلكه، وتستمد منه أدلتها وحججها، وتروم كشف محباته وأسراره، وتكشف النقاب عن بدائعه ونفائسه التي لا تنتهي.

ومن العلوم التي نشأت في أحضان الكتاب العزيز علم البلاغة؛ ذلك العلم الذي يُعنى بكشف جمال أساليب القرآن الكريم، ويفصح عن آيات حسنه وجماله وجلاله.

ولا شك أن العلوم العربية والدينية لا تفتأ تتكامل وتتداخل في حياة العربي بصفة خاصة، والمسلم بصفة عامة، ويظهر تداخلها على المستوى النحوي والدلالي والبلاغي والتفسيري وقد أردت من خلال بحثي هذا (التبادل بين جوابات الشرط في القرآن الكريم) أن أسهم في هذا التداخل بين علم النحو وعلم الدلالة وعلم التفسير، وأن أقف على هذه الفروق الدلالية بين هذه الجوابات وآثارها الفنية التي استكنت فيها، وانطوت عليها.

وأعني بالتبادل بين جوابات الشرط هذا التناوب الذي يأتي عليه الجواب، واختلاف صورته في الموضوع الواحد، وتحليلها تحليلًا دلاليًا يكشف سرَّ التبادل فيها، وما يترتب عليه من معانٍ مقصودة تفيده في تجلية المراد من النص القرآني الكريم وبيانه.

ولا شك أن التبادل الذي يقع بين الجوابات في الموضوع الواحد أو الآية الواحدة لا يحصل اعتبارًا، وإنما يكون وراءه غرض دلالي مقصود لا يستقيم إلا بهذا التبادل، ولو تغير التركيب عن الصورة التي نزل القرآن عليها لاختل مضمون الكلام وهدفه؛ لأن أي اختلال في بناء الجملة يؤثر في دلالتها، وأي تغير في صورة الوظيفة النحوية الواحدة يتبعه بالضرورة - في النصوص اللغوية العالية - تغير في معناها.

وقد أردت من هذا البحث أن أكشف عن المعاني الدلالية التي تنتج عن التبادل المتاح في جوابات الشرط، وذلك من خلال اختيار بعض الآيات القرآنية التي تفي بغرض البحث، وإن لم أقف على مجموعها أو إحصائها.

ولن يتمكن الباحث من الوقوف على المعاني الدلالية الكامنة وراء تبادل الصور المتاحة لوظيفة جواب بالشرط إلا بتحليل هذه الجوابات تحليلًا تتعاور عليه فروع المعرفة العربية من نحو ودلالة وبلاغة وتفسير، وهذا هو المسلك الذي تنتهجه الألسنية الحديثة في معالجة النصوص.

وأسلوب الشرط من الأساليب التي يكثر دورانها في الكلام العربي بصفة عامة، وفي القرآن الكريم بصفة خاصة، ومن ثمَّ كان الداعي إلى الاستبصار بأسرار التبادل بين صور الجواب فيه أمراً ملحاً؛ لكشف الأهداف الفنية التي تحدو بالمتكلم إلى مخالفة هذا الأصل في تركيبه إلى غيره من الصور الفرعية التي تكون في محله الإعرابي؟.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة هذا البحث في كون مادته العلمية تحليلاً لجانب فني رائع من تركيب كلامي شائع في القرآن الكريم وهو (التركيب الشرطي) وتتبع صور جوابه؛ للوقوف على أسرار تبادلها، والقيم الدلالية التي تقف وراء هذا التبادل، وهذا بلا شك أمر يحتاج إلى دقة بالغة في تحليل وتعليل هذا التبادل، وهو أمر لم ينبّه عليه كثير من المفسرين، ومن ثمَّ فالواجب على صاحب البحث أن يلتمس علل هذا التبادل بما يتوافق مع السياق اللغوي الذي وردت فيه الآية التي تبادل فيها الجواب، وهذا أمر تشوبه بعض المحاذير التي تقلق الباحث في أن يقول في القرآن برأيه.

تساؤلات البحث:

- ١- هل يؤدي التبادل بين جوابي الشرط في الآية الواحدة إلى معانٍ مقصودة لا تظهر إلا بهذا التبادل؟
- ٢- ما العلل المعنوية الكامنة وراء التبادل بين مجيء الجواب فعلاً ماضياً، ثم مجيئه فعلاً مضارعاً؟
- ٣- لم يبادل الله - سبحانه وتعالى - بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية حين يجيئان في آية واحدة؟

أهمية البحث وأسباب اختياره:

- يرجع اختيار هذا الموضوع محلاً للدراسة إلى جملة أسباب، من أهمها:
- ١- أن البحث في التبادل بين جوابات الشرط يوقف الباحث على المعاني الدلالية المحتجبة في تراكيب أسلوب الشرط، والأهداف والغايات الناتجة عن هذا التبادل، وهذا بلا شك ملمح من ملامح إعجاز تراكيب القرآن.
 - ٢- أن هذا البحث يربط بين ثلاثة علوم شريفة هي علم النحو وعلم الدلالة وعلم التفسير، وهذا بالضرورة يدل على تداخل العلوم العربية وتكاملها في الوصول إلى دلالات الكلام المرادة.
 - ٣- أن مثل هذا الموضوع يُبين بجلاء عن منطق العربية في رعاية معانيها، ويؤكد على أن ألفاظها وتراكيبها إنما هي خدم لهذه المعاني وتابعة لها، وبدون هذا ما تفاضل كلام على كلام.
 - ٤- أن البحث في تبادل جوابات الشرط يُعدُّ تعبيراً عن منطق اللغة التي لا تحكمها الصور الأساسية لتراكيبها النحوية، وإنما تبدو مرونتها وحرمتها في الاختلاف والبحث عن مقاصد المتكلم.

صعوبات البحث:

- ١- صعوبة رصد العلل والدلالات بين تبادل الجوابات المختلفة.

- ٢- تداخل العلوم وتشابكها في هذا الموضوع للوقوف على الفروق النحوية والدلالية بين جوابات الشرط المتبادلة.
- ٣- إغفال كثير من المفسرين التعليق على علة التبادل في جوابات الشرط.

الدراسات السابقة:

لا شك أن أسلوب الشرط من الأساليب النحوية المنتشرة في النصوص بصفة عامة، وفي النص القرآني بصفة خاصة، ومن ثم فقد غاصت فيه بعض الأقلام، وتعرض له كثير من الباحثين بالبحث والنظر، ولكي لم أقف على دراسة تعرضت لخصائص الجوابات وتبادلها والسمات الدلالية المميزة لجواب دون آخر، ومن الدراسات التي تناولت الشرط عموماً بالعناية والاهتمام ما يأتي:

- ١- الشرط في القرآن الكريم: رسالة ماجستير، إعداد. عبد العزيز على الصالح، كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، ١٩٧٦م-١٣٩٦هـ.
- ٢- الجملة الشرطية عند النحاة العرب د. أبو أوس إبراهيم الشمسان الطبعة الأولى ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١م مطابع الدجوي - عابدين.
- ٣- العدول في البنية التركيبية (قراءة في التراث البلاغي) إعداد. د. إبراهيم بن منصور التركي، بحث محكم ضمن منشورات مجلة جامعة أم القرى بمكة المكرمة، المجلد ١٩ العدد ٤٠ ربيع الأول ١٤٢٨هـ.
- ٤- العلاقات التركيبية والدلالية في الجملة الشرطية (رؤية لسانية) د. عاطف فضل، د. حسين كتانة، بحث محكم ضمن منشورات مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر- الجزائر، العدد الثاني عشر ٢٠١٣م.

منهج البحث:

للاوصول إلى الأهداف المراد تحقيقها من وراء هذا البحث فسوف أسير في تناوله وعرض مادته داخل إطار المنهجين: الوصفي والتحليلي، وذلك بالعمد إلى تحليل جمل الجواب التي تبادل في السياق الواحد، ووصفها؛ للوقوف على أغراض هذا التبادل، وما ترتب عليه من الدلالات الفنية.

وقد اقتصر هذا البحث على بعض الآيات التي تظهر من خلالها فكرته الرئيسة؛ وذلك نظراً لكثرة الآيات وتشابه صور الجواب فيها، الأمر الذي جعلني أقوم برصد صور الجوابات التي تبادل بعضها في السياق الواحد في القرآن الكريم، ومحاولة الوصول إلى أسرارها الدلالية من خلال كتب النحاة والبلاغيين والمفسرين، حتى تتضح الفكرة العامة من البحث.

خطة البحث:

وقد انتظم البحث في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس، للمصادر والمراجع.

المقدمة: وذكرت فيها التعريف بالموضوع، و مشكلة البحث، وتساؤلات البحث، وأهميته، وصعوباته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته الإجمالية.

المبحث الأول: تبادل جواب الشرط من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية.

المبحث الثاني: تبادل جواب الشرط من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

فهرس المصادر و المراجع:

توطئة

لا شك أن التراكيب النحوية خاضعة لمقاييس وقوانين مقررة تعطيها الإفادة المرجوة والمعنى الابتدائي المراد، وقد فطن النحاة الأوائل عند تقعيدهم اللغة إلى الصور الأساسية للتراكيب النحوية، وإلى الصور التي قد تخرج إليها هذه التراكيب رعاية للموقف الكلامي والحدث اللغوي وفقا لما استقر عندهم من استقراء كلام العرب.

والوقوف على الصور الفرعية التي تخرج عن الصور الأصلية في أمر يكاد يكون شائعا في كل التراكيب النحوية، وقد فطن كبار النحاة إلى الأغراض التي تخرج بها التراكيب من الأصل إلى الفرع، والخواطر والمعاني التي تسكن وراء هذا الخروج، وهذا التبادل بين صور التراكيب، وهذا الأمر يعكس جانبا مهما من جوانب مرونة اللغة ورحابتها وعنايتها بأغراض المتكلمين ومحاولة إيصالها للسامعين بأوجز لفظ وأدق عبارة بصرف النظر عن أصل التركيب.

ودراسة دلالات صور التبادل بين الأصل والفرع في جوابات أسلوب الشرط هو مقصود هذا البحث وهدفه؛ وهو مسلک يقوم على رصد المعاني المستكنة وراء هذا التبادل، وبيان الخصائص الجمالية التي يخالف فيها الجواب الثاني الجواب الأول في تركيبين متشابهين تقريبا في سياق لغوي واحد، والوقوف على خصائص المعنى في التركيب اللاحق والتركيب السابق، والأحوال المقامية التي خالفت بينهما في التبادل من الجملة الاسمية إلى الفعلية، ومن الجملة الفعلية إلى الاسمية، وبخاصة في النص القرآني المعجز.

المبحث الأول

تبادل جواب الشرط من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية

تقوم فكرة التبادل بين جوابات الشرط؛ من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية على استكناه الدلالات الفنية التي تحول بها التركيب الشرطي- في الآية الواحدة، والسياق الواحد- من الجملة الفعلية الدالة على التجدد إلى الجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والوقوف على سرّ هذا التبادل، ومن ذلك:

تبادل جواب الشرط من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية المقصورة بإنما قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمْتُمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

جاء في هذه الآية الكريمة ثلاثة جوابات كلها مقترنة بالفاء، أولها: جملة فعلية فعلها طلبي (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ)، والثاني: جملة فعلية فعلها ماض مقترن بحرف التحقيق (قد)، (فَإِنْ أَسَلَّمْتُمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا) والثالث: جملة اسمية مؤكدة بالقصر والتخصيص (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ).

والناظر في الجوابات الثلاثة يرى أنّ أداة الشرط في أفعالها جميعا واحدة وهي (إنّ) التي تفيد الاستقبال، ولا يكون الشرط معها مقطوعا بوقوعه^(٢).

كما أنّ ورودها "يكون في الأمور المحتملة؛ المشكوك في وقوعها"^(٣).

وتبادل الجوابات في جمل الشرط الواردة في الآية الكريمة مع تعلّق الجمل الثلاثة بعضها ببعض أمرٌ يدعو إلى التماس الغرض الدلالي منهما.

فالجواب الأول: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ) جاء فعل أمرٍ أمر الله به رسوله عند تولي أهل الكتاب عن دينه الذي أرسل به، ومجيء الجواب هنا فعلا أمريا فيه توجيه من الله لرسوله في قضية من أهم قضايا الإيمان وهي قضية

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٠ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: لأبي المعالي جلال الدين القزويني محمد بن عبد الرحمن بن عمر(ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة دار الجيل - بيروت، الطبعة الثالثة ٨٨/١، ومختصر المعاني لشرح تلخيص المفتاح: لسعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت: ٧٩٣هـ) طبعة دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ص ٦٠.

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: للعلوي يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني (ت: ٧٤٥هـ) طبعة المكتبة العصرية- بيروت، الأولى ١٤٢٣هـ ٢٧٧/٣.

الاتباع، وإسلام الوجه، وأن كل ما يصدر من النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأعمال فالوجه في الإتيان به هو عبودية الله والانقياد لإهتيه وحكمه، وقيل: المراد من إسلام الوجه لله إسلام النفس، وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام النفس لله؛ فيصير كأنه موقوف على عبادته، عادل عن كل ما سواه^(٤).

وأما الجواب الثاني: (فَإِنْ أَسَلُّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا) فقد جاء فعلا ماضيا للدلالة على انقضاء الحدث وتحققه، وأن أهل الكتاب إن دخلوا في الإسلام فقد حصلت لهم الهداية، وعبر بصيغة الماضي المصحوب بقد الدالة على التحقيق مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصيله، وخروجهم من الظلمة إلى النور، ويحتمل أن يكون المراد: فقد اهتدوا للفوز والنجاة في الآخرة إن ثبتوا عليه^(٥).

وأما الجواب الثالث: (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ) فقد جاء جملة اسمية مصدرية (إنما) الموضوع "على أن تجيء لخير لا يجمله المخاطب، ولا يدفع صحته"^(٦) ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

ومجيء هذا الجواب جملة اسمية محصورة (إنما) فيه إلماح إلى ثبوت المعنى ورسوخه، وأن مهمة النبي - صلى الله عليه وسلم - الرئيسية هي البلاغ، وأنهم "إن تولوا فإنما عليه البلاغ، وأنهم لا يضررونه بتوليهم، وما عليه هو إلا تنبيههم بما يبلغه إليهم من طلب إسلامهم وانتظامهم في عبادة الله وحده"^(٧).

وأنهم إن تولوا وأعرضوا عن دعوته فليس عليه من إعراضهم تبعه؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وقد ذهب الطاهر ابن عاشور إلى أن قوله: (فإنما عليك البلاغ) ليس جواب الشرط، وإنما هو علة الجواب في المعنى وقع موقعه، وفي وقوعه موقع الجواب إيجاز بديع، والتقدير: لا تحزن، ولا تظن أن عدم اهتدائهم، وخيبتك في تحصيل إسلامهم، كان لتقصير منك؛ إذ لم تبعث إلا للتبليغ، لا لتحصيل اهتداء المبلِّغ إليهم^(٨).

(٤) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بخطيب الري (ت: ١١٧٣هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ ١٧٣/٧.

(٥) البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان أنور الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ ٧٤/٣.

(٦) دلائل الإعجاز: لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر، طبعة مطبعة المدني - القاهرة، دار المدني - جدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ص ٣٣٣.

(٧) البحر المحيط: لأبي حيان ٧٤/٣.

(٨) التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) للشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، طبعة دار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤هـ ٢٠٥/٣.

ومن تبادل الجواب من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية المقترنة بالفاء، قول الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٩).

جاء جواب الشرط في هذه الآية (فأولئك هم المفلحون) جملة مؤكدة للمعنى المراد بثلاثة مؤكدات، الأول: اسمية الجملة التي تدل بأصل وضعها على ثبات المعنى واستقراره^(١٠)، والثاني: تعريف الطرفين؛ المفيد للقصر والتخصيص، وانحصار المخبر به في المخبر عنه^(١١)، الثالث: الإتيان بضمير الفصل الذي "يجمع أنواعا من التبيين؛ فيؤكد الخبر للمخبر عنه، ويفصل الخبر من الصفة، فيعين ما بعده للإخبار لا للوصف"^(١٢) مع ما في ذلك من القصر والتخصيص^(١٣) ومنه قولك: (زيد هو المنطلق) من حيث كون الثاني لا يقبل التجوز والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره^(١٤). ومن خلال كل هذه المؤكدات التي تعاورت على جملة الجواب يتبين لنا بلاغة المعنى المراد، والاحتياط لتأديته على الوجه الذي لا يُتأتى معه اللبس أو الشك؛ وذلك أن الله تعالى أراد أن يبين لنا أنه لن يفلح في الآخرة يوم الحساب والعرض عليه إلا من ثقلت موازينه، وأشار بالمبتدأ (أُولَئِكَ) إلى اسم الشرط (مَنْ) باعتبار اتصافه بنقل الميزان، والجمعية فيه باعتبار معناه، كما أنه جمع الموازين لذلك (فمن ثقلت موازينه) وأما ضمير موازينه فراجع إليه باعتبار لفظه، وما فيه من معنى البعد؛ للإيدان بعلو طبقتهم وبُعد منزلتهم في الفضل والشرف؛ وأهم (هُمُ المفلحون) الفائزون بالنجاة والثواب وحدهم دون سواهم، كما أن في تعريف (المفلحون) دلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون في الآخرة، أو إشارة إلى ما يعرفه كلُّ أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم^(١٥).

(٩) سورة الأعراف: الآية ٩ .

(١٠) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لجار الله أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م ٨٥/١، ودلائل

الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني ص ١٧٨ .

(١١) دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني ص ١٧٨ .

(١٢) اللباب في علل الإعراب والبناء: لحب الدين البغدادي أبي البقاء عبد الله بن الحسين ابن عبد الله العكبري (ت: ٦١٦هـ)، تحقيق غازي مختار طليمات، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م ٤٩٦/١ .

(١٣) الإيضاح في علوم البلاغة: لجلال الدين القزويني ص ٥٧ .

(١٤) الكشف: للزمخشري ٨٥/١ .

(١٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، (ط.د)، (د.ت) ٢١٣/٣ .

وذهب الإمام ابن عاشور إلى أن التعريف في (المفلحون) للجنس أو العهد، ورجحه قائلاً: "فأما إذا كان التعريف للجنس وهو الظاهر فتعريف المسند إليه مع المسند من شأنه إفادة الاختصاص غالباً لكنه هنا مجرد عن إفادة الاختصاص الحقيقي، ومفيد شيئاً من الاهتمام بالخبر، فلذلك جلب له التعريف دون التنكير وهذا مثل قولهم: هو البطل الحامي، أي إذا سمعت بالبطل الحامي وأحطت به خبراً فهو فلان" (١٦).

ومن تبادل الجواب من الجملة الفعلية المقصورة بإيما إلى الجملة الاسمية المقترنة بالفاء، قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٧).

اشتملت هذه الآية على تركيبين شرط مختلف جوابهما؛ فجاء الأول جملة فعلية مقصورة بإيما (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)، وجاء الثاني جملة اسمية مؤكدة ب(إِنَّ) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).

والملاحظ أنَّ فعل الشرط جاء في التركيب الأول فعلاً مضارعاً (ومن يشكر)، وجاء في التركيب الثاني فعلاً مضارعاً (ومن كفر) وفي هذا إشارة إلى أمرٍ هو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة، فمن شكر ينبغي أن يكرر، وأما الكفر فينبغي أن ينقطع؛ فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران، أو لأن الشكر من الشاكر لا يقع بكامله، بل لا بد أن يكون منه شيء في المستقبل لم يقع لأن المضارع يدلُّ على الحال والاستقبال، وأما الكفر فكل جزء يقع منه تاماً ولذا جاء بصيغة الماضي (١٨).

أو لأن الشكر يتجدد وكل ما يتجدد يكثر بخلاف الكفر الذي يقع ابتداءً ويبقى صاحبه عليه إلا إذا شاء الله، فالشكر عمل يومي متجدد بخلاف الكفر الذي هو الاعتقاد، والاعتقاد يقتضي الثبات والتحقق والفعل الماضي يدل على ذلك الثبات وهذا التحقق.

وأما تبادل جوابي الشرط في الآية فقد شكَّل ملمحاً دلالياً عميقاً وذلك أنه جاء في التركيب الأول جملة فعلية مقصورة ب(إيما) للدلالة على أنَّ من يشكر فإن شكره لا يكون إلا لنفسه، وهذه هي الحكمة التي آتاه الله لقمان، والتي هي شكره، وأن من يشكر الله فهو قصراً لا يشكر إلا لنفسه؛ إذ إنَّ شكر الشاكرين جميعاً لا يعود عليه - سبحانه - بفائدة

(١٦) التحرير والتنوير : للطاهر بن عاشور ٣١/٨.

(١٧) سورة لقمان: الآية ١٢.

(١٨) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي ١١٩/٢٥.

تُذكر؛ ولذا "أخبر أنه غني لا ينفعه إيمان مؤمن، ولا يزيد في ملكه، ولا يضره كفر كافر، ولا ينقص من ملكه"^(١٩)، ولما كان ذلك كذلك أكد الله جواب الشرط في التركيب الأول بأداة القصر (إنما) المثبتة لما بعدها النافية لما سواه. ثم أتى بجواب الشرط في التركيب الثاني جملة اسمية مؤكدة بـ(إنَّ) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)؛ وتأكيده الجواب بإنَّ التي "يؤتى بها لتأكيد مضمون الخبر وتقريره"^(٢٠) ومضمون الخبر هنا أنَّ "من كفر نعمة الله عليه إلى نفسه أساء لأن الله معاقبه على كفرانه إياه، والله غني عن شكره إياه على نعمه، لا حاجة به إليه، لأن شكره إياه لا يزيد في سلطانه، ولا ينقص كفرانه إياه من ملكه، ويعني بقوله: (حَمِيدٌ) محمود على كلِّ حال، له الحمد على نعمه، كفر العبد نعمته أو شكره عليها"^(٢١).

ومن تبادل الجواب من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية المنسوخة بكان قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَدْنَا عَلَى

الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ﴾^(٢٢).

اشتملت هذه الآية على تركيبين شرط تبادل جواهما؛ فجاء الأول جملة فعلية فعلها ماض عطف عليه مثله؛

لإفادة انقضاء الحدث وتحققه (أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)، وجاء الثاني جملة اسمية منسوخة بـ(كان) (كان يتوسأ).

والملاحظ أنَّ أفعال الشرط والجواب في التركيبين جاءت ماضية للدلالة على انقضاء الحدث وتحققه مع مجيء

الشرط بـ(إذا) الدالة على الأمور المتحققة والأمور كثيرة الوقوع، والأمور المقطوع بوقوعها، يقول الإمام السيوطي: "تختص

(إذا) الظرفية إذا جاءت شرطاً بدخولها على المتيقن والمظنون والكثير الوقوع بخلاف (إنَّ) فإنها تستعمل في المشكوك

والموهوم النادر؛ ولهذا قال الله: (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) ثم قال: (وإن كنتم جنباً فاطهروا) فأتى بـ(إذا) في الوضوء

لتكرره وكثرة أسبابه، وبـ(إنَّ) في الجنابة لندرة وقوعها بالنسبة إلى الحدث، وقال: (فإذا جاءكم الحسنة قالوا لنا هذه وإنَّ

(١٩) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): لأبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت: ٣٢٣هـ)، تحقيق د. مجدي باسلوم، طبعة

دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م ١٣٩/٩.

(٢٠) شرح قطر الندى وبل الصدى: لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف بن هشام (ت: ٧٦١هـ)، تحقيق. محمد

محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار الحيز - السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٠ - ١٩٩٠ م ص ٢٠٥.

(٢١) تفسير الطبري ٢٠/١٣٦.

(٢٢) سورة الإسراء: الآية ٨٣.

تصبههم سيئة يطيروا)، (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) أتى في جانب الحسننة (إذا) لأن نعم الله على العباد كثيرة ومقطوع بها وب(إن) في جانب السيئة لأنها نادرة الوقوع^(٢٣).

فالمراد من مجيء فعل الشرط الأول ماضيا الإعلام بأنّ إنعام الله على الإنسان متحقق مقطوع به، وهو أيضا كثير الوقوع، وعلى الرغم من ذلك فإنّ إعراض الإنسان، ونأيه بجانبه عن طاعته وخضوعه له وشكره نعمته عليه - مع كثرة إنعام الله عليه - واقع متحقق، "وإعراض الإنسان ونأيه تباعده عن الله بنفسه، وترك التقرب إلى الله بالدعاء"^(٢٤).

وأما جملة الجواب في التركيب الثاني الذي جاء مصدرا ب(إذا) والفعل الماضي أيضا (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُتُوسَّأً) فقد أفادت ما أفادته الجملة الأولى من المعاني؛ وكأنّ الجملتين صارتا متوازيتين في التعبير عن المراد، من المفارقة بين حال الإنسان في الرخاء وحاله في الشدة، إلا أن الأولى جاءت فعلية، والثانية جاءت اسمية منسوخة بكان "معطوفة على ما تقدم، وجملة كان لا محل لها، واسم كان مستتر تقديره هو، ويؤوسا خبر كان"^(٢٥).

وأتى هنا ب(كان) للدلالة على "رسوخ الفعل تعجبا من حال العبد وقت مس الضر إياه؛ لأن حالة الضرر أدعى إلى الفكرة في وسائل دفعه، بخلاف حالة الإعراض في وقت النعمة، فإنها حالة لا يستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من النعمة"^(٢٦).

وأرى أن كان هنا يمكن أن تكون التامة، ويتصب (يُتُوسَّأً) على الحالية؛ لأن مس الشر ليس من عادة الله بالإنسان، وإنما الأصل فيه أن يتفضل الله عليه بالنعم والفضل ولكنه مع ذلك يعرض عن ربه، فإذا مسه الشر فحاله أن يئأس من روح الله، أما أن تكون هذه حاله - فأراه - غير موافق للمعنى في الآية.

فإن قيل: أليس لفظ (إذا) يفيد كثرة الوقوع؟ قلت: لفظ (إذا) يفيد كثرة الوقوع، كما يفيد القطع بوقوع الجواب، وعليه فيكون "المقصود بالإنسان المعرض المتكبر، لا مطلق الإنسان، ويكون لفظ (إذا) للتنبيه على أن مثل هذا المعرض يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعا به"^(٢٧).

(٢٣) الإتيان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ١٧٨/٢.

(٢٤) تفسير البغوي: ١٥٨/٣.

(٢٥) إعراب القرآن وبيانه: لحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: ١٤٠٣هـ)، طبعة دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص - سورية ودار اليمامة، دمشق - بيروت، ودار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ ٤٩٤/٥.

(٢٦) التحرير و التنوير: للطاهر بن عاشور ١٥/١٩١.

(٢٧) الإتيان في علوم القرآن: للإمام السيوطي ١٧٨/٢.

ويؤيد هذا ما ذكره الزمخشري في تأويل (مسه الشر) حيث قال: "وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ نَازِلَةٍ مِنَ النَّوَازِلِ كَانَ يُؤَسِّسًا شَدِيدَ الْيَأْسِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْتَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ" (٢٨).
ومن ثمَّ ندرِك كيف أدى تبادل الجوابين إلى إثراء المعاني وتفاعلها مع المقامات التي وردت فيها، وتناغمها في مواضعها تناغما يقطع بأن كل تركيب يحمل في طياته سماته المميزة، وخصائصه الدالة على معانيه المرادة.

المبحث الثاني

تبادل الجواب من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية

وقفنا في المبحث الأول على أسرار التبادل من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في التركيب الشرطي في الآية الواحدة، وفي هذا المبحث سوف نتعرف على الأغراض الدلالية في التبادل من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية، ومنه:
تبادل الجواب من الجملة الاسمية المنسوخة بكان، إلى الجملة الفعلية، قول الله تعالى: ﴿يَجْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٩).
اشتملت هذه الآية على تركيبين شرطيين تبادل جوابهما؛ فجاء الأول جملة اسمية منسوخة بكان، وجاء فعل الجواب مضارعاً للدلالة على الاستقبال، أو للشك في توبتهم، وبخاصة أنه صدر التركيب بأداة شرط تقتضي تعليق شيء، ولا تستلزم تحقق وقوعه، ولا إمكانه، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً كما في قول الله تعالى: (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) [الزخرف: ٨١] أو في المستحيل عادة كما في قول الله تعالى: (فإن استطعت أن تبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتينهم بآية) [الأنعام: ٣٥] (٣٠).

(٢٨) الكشف: للزمخشري ٦٨٩/٢.

(٢٩) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٣٠) الكلبيات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء الكفوي أيوب بن موسى الحسيني القريني الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ) تحقيق.

عدنان درويش- محمد المصري طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت، (د.ط) (د.ت) ص ١٠٢١.

و قد نص النحاة على أنّ المجازة (إنّ) لا تكون إلا في المعاني المحتملة المشكوك في كونها؛ ولذلك فيح (إنّ) احمرّ البُسْرُ كان كذا^(٣١).

ومما حسن استعمالها الدلالي في هذه المعاني، ودلّ على جودة هذه اللغة الشريفة ودقتها أنّ (إنّ) في الجزاء تكون مبهمة، ولا تُستعمل إلاّ فيما كان مشكوكاً في وجوده، ولذلك كان بالأفعال المستقبلية؛ لأنّ الأفعال المستقبلية قد توجد، وقد لا توجد؛ ولذلك لا تقع المجازة (إذا) وإن كانت للاستقبال لأنّ الذّاكر لها كالمعترف بوجود ذلك الأمر، كقولك: (إذا طلعت الشمسُ فأُتني)^(٣٢).

والمتابع لسياق الكلام في هذه الآية الشريفة يدرك أنّها نزلت في المنافقين الذين أعلنوا الإسلام وأبطنوا الكفر، على الرغم من أنّ الله أغناهم من فضله ورسوله كذلك؛ ولذا فهو يحذرهم ويحذر منهم ويخبر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنّ إيمان هؤلاء وتوبتهم أمر موهوم مشكوك في وقوعه منهم، ولذا أتى (إنّ) (فإنّ يتوبوا بك خيرا لهم) الدالة على هذه المعاني.

والملاحظ أنّ جواب الشرط في التركيب الأول جاء جملة اسمية منسوخة بكان (بك خيرا لهم) والمدقق في فعل الجواب هنا يجد أنه جاء مجزوماً، محذوف النون (بك) وقد ذكر النحاة أنّ نون كان تحذف تخفيفاً لكثرة الاستعمال، بشرط أن يكون الفعل مجزوماً بالسكون وألا يليه حرف ساكن، وذكر ابن عقيل أنّ هذا مذهب سيبويه ومن تابعه، وأنّ القياس ترك حذف النون: "ولكنهم حذفوا النون تخفيفاً لكثرة الاستعمال؛ فقالوا لم يك وهو حذف جائز"^(٣٣).

وأرى والله أعلم أنّ حذف النون هنا ليس لمجرد التخفيف كما ذكر النحاة، وإنما لغرض بلاغي يقتضيه المقام، ولو كان للتخفيف في الكلام العادي، فلا ينبغي أن يقال بذلك في القرآن الكريم، وإنما يبحث عن العلة من حذفه، وقد ذكر الإمام الزركشي علة لطيفة جداً لحذف النون في هذه المقامات التي تحذف منها فقال في فصل (في حذف النون): "ويلحق بهذا القسم حذف النون الذي هو لام فعل؛ فيحذف تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأنّ منه ينشأ ويزيد

(٣١) شرح المفصل للزحخشري: لأبي البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي الأسدي الموصلّي، المعروف بابن يعيش ويا بن الصانع (ت: ٦٤٣هـ)، قدم له د. إميل بديع يعقوب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م ١١٣/٥.

(٣٢) شرح المفصل: لابن يعيش ١١٣/٥.

(٣٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: لابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الهمداني المصري (ت: ٧٦٩هـ)، تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار التراث- القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م ٢٩٩/١.

إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل (ألم يك نطفة) حذفت النون تنبيها على مهانة مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه^(٣٤).

وبهذا ندرك أن حذف النون من جواب الشرط هنا تنبيها على أن الله - عز وجل - فتح لهم باب التوبة رفقا بهم ولطفًا، وأنهم إن تابوا إلى الله وأتابوا يكن هذا المتاب خيرا لهم وإن قلَّ، فلو تابوا أقل توبة لكانت خيرا لهم، وفي هذا ترغيب لهم على العودة إلى صف المسلمين، والانضواء تحت لوائهم.

وقد جاء الجواب هنا جملة اسمية دالة على الثبوت للدلالة على أنهم إن تابوا ثبتت الخيرية لهم "وحيء بفعل (يك) في جواب الشرط دون أن يقال: فإن يتوبوا فهو خير لهم؛ لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، والإيماء إلى أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة لأن فعل التكوين مؤذن بذلك"^(٣٥).

وأما جواب الشرط في التركيب الثاني فقد جاء فعلا مضارعا جملة فعلية فعلها مضارع دال على التجدد والاستمرار والحدوث (وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، وأسند الله الفعل إلى نفسه - سبحانه وتعالى - للإعلام بما ينتظرهم من سوء المصير في الدنيا والآخرة إن هم تولوا عن التوبة، قال الرازي:

"وإن يتولوا أي؛ عن التوبة يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة، أما عذاب الآخرة، فمعلوم، وأما العذاب في الدنيا، فقليل: المراد به أنه لما ظهر كفرهم بين الناس صاروا مثل أهل الحرب؛ فيحل قتالهم وقتلهم وسي أولادهم وأزواجهم واغتنام أموالهم، وقيل: بما ينالهم عند الموت ومعاناة ملائكة العذاب، وقيل: المراد عذاب القبر"^(٣٦).

ويرى أبو حيان أن المراد من الفعل المضارع (يتولوا) هو مداومة التولي، وليس التولي نفسه؛ "إذ هم متولون في الدنيا بإلحاقهم بالحربيين؛ إذ أظهرها الكفر، فيحل قتالهم وقتلهم، وسي أولادهم وأزواجهم، وغنم أموالهم، وقيل: ما يصيبهم عند الموت ومعاناة ملائكة العذاب"^(٣٧).

(٣٤) البرهان في علوم القرآن: لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى الباني الحلبي وشركائه - القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م ٤٠٧/١.

(٣٥) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور ٢٧١/١.

(٣٦) مفاتيح الغيب: للفخر الرازي ١٠٣/١٦.

(٣٧) البحر المحيط: لأبي حيان ٤٦٤/٥.

ومن تبادل الجواب من الجملة الاسمية المقترنة بالفاء، إلى الجملة الفعلية المنفية بلا قول الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٨).

الناظر في هذه الآية الكريمة يجد فيها أسلوبين شرط أداتهما واحدة (من)، وفعلاتها واحد (جاء) وهو فعل ماض مبني في محل جزم فعل الشرط، ومعلوم أن الأصل في الشرط أن يكون مضارعاً؛ وذلك لأن وقوع الجواب فيه متوقف على وقوع الشرط، ومن ثم كان الأصل فيه أن يكون للمستقبل، "وقد يستعمل الماضي في الشرط متحقق الوقوع نحو قولك: (أنت وإن أعطيت مالا بجيل) و(أنت وإن صرت أميراً لا أهابك)" (٣٩).

فمجيء الجائي بالحسنة ومجيء الجائي بالسيئة أمر مقطوع به متحقق الوقوع؛ إذ الخلق جميعهم مسلمهم وكافرهم لا يخلو واحد منهم من التلبس بأحد الحالين؛ إما المحيي بالحسنة، وإما المحيي بالسيئة، ولما كان ذلك كذلك جاء بالشرط ماضياً للدلالة على أن هذا أمر قد وقع وقرغ منه.

وأما مناط التعليق ففي جواب الشرط؛ حيث إن الأسلوبين تشابها في الأداة والفعل ولكنهما تبادلوا في الجواب، ومن ثم وجب البحث وراء مجيء الجواب في الجملة الأولى جملة اسمية تقدم فيها الخبر، ومجيء الجواب في الجملة الثانية جملة فعلية منفية ب(لا)، وبيان ذلك على ما يأتي:

أن الجواب الأول الذي جاء جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام جاء على هذه الصورة لطمأننة هذا الذي يعمل الصالحات، ويأتي بالحسنات على استقرار أجره وثبوته عند ربه الكريم حتى يقابل حسنته بعشر أمثاله تكريماً منه وفضلاً فله عشر أمثاله، أي "عشر حسنات أمثاله" (٤٠)، فحذف الموصوف، وأقام الصفة مقامه، وحذف الموصوف كثير في الكلام؛ "ولذا أتت لفظ (العشر)؛ لأن الأمثال هاهنا بالمعنى حسنات، ويحتمل أن الأمثال أتت لما أضيفت إلى مؤنث، وهو الضمير" (٤١) وإنما حسن التأنيث في (عشر أمثاله) لأن الإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه في المعنى حسن فيه ذلك،

(٣٨) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٣٩) شرح الرضي على كافي ابن الحاجب: لرضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي (ت: ٦٨٦هـ) تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي- ليبيا، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م ٢/٢٩٣.

(٤٠) تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن) لمحيي السنة؛ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ) تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع- السعودية، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م ٣/٢١١.

(٤١) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٥/٢٠٦.

نحو (ذهبت بعض أصابعه)^(٤٢)، وهذه الزيادة التي تفضل الله بها على عباده هي "أقلُّ ما وعد الله تعالى من الإضعاف، وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثوابًا بغير حساب، ومضاعفة الحسنات فضل"^(٤٣).

وقد أتى (اللام) التي تفيد الملك (فله) للدلالة على ثبوت ذلك الفضل لهذا الجائي بالحسنة، مع ما في الجملة من الثبوت و التقرر المقوي للمعنى نفسه.

وأما جواب الجملة الثانية؛ وهو جواب الجائي بالسببية، المقابل للجائي بالحسنة، فقد اختلف تركيب جواب الشرط معه اختلافًا بيّنًا؛ فجاء جملة فعلية فعلها مضارع منفي ب(لا) (فلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا) مبني لما لم يسم فاعله.

والملاحظ أن الجواب هنا يختلف عن جواب من جاء بالحسنة من جهة التركيب النحوي؛ حيث جاء الجواب الأول جملة اسمية لإفادة الثبوت، وجاء الجواب الثاني جملة فعلية لإفادة التجدد والحدوث؛ وكأن في هذا الإلماح إلى عظيم رحمة الله بعباده حيث أعطاهم فرصة للتراجع واستدراك ما فات من التقصير في عبادته وطاعته، ولو أتت الجملة هنا اسمية لأوجب الله لمن جاء بالسبيئة النار من غير تردد، ولما أبقى له أملا في العودة إلى ربه الرحمن الذي إن تاب العبد وأتاب ورجع إليه قبله وغفر له، وبدل سيئاته حسنات.

ومن لطيف ما ورد في هذا الجواب أيضا مجيء فعله (فلا يُجْزَى) مبني لما لم يسم فاعله؛ وذلك لأن الله تعالى لا يسند الشر إلى نفسه مطلقا في الكتاب العزيز، ثم من رحمته بالعصاة أنه إن لم يعف عن السبيئة لم يجعل عقابها إلا بمثلها، ولا يظلم ريبك أحدا، وأكد هذا المعنى بالقصر الذي وسيلته (لا) و(إلا) للدلالة على أنه حكم لا حميد عنه، ولا رجعة فيه. وقد ذهب غير واحد من المفسرين إلى أن المراد بالحسنة والسبيئة في الآية الكريمة هو الكفر والإيمان، أو قول لا إله إلا الله والشرك، وأن جزاء الحسنة الجنة، وجزاء السبيئة النار^(٤٤).

ولكن الذي يبدو لي أن الآية تعم كلَّ جاءٍ بحسنة، عظمت كالإيمان بالله تعالى، أو صغرت كإمالة الأذى عن الطريق، وكذلك كل جاءٍ بسبيئة عظمت كالكفر بالله تعالى، وهذا جزاؤه النار، ولا يظلم ريبك أحدا، ومن ثمَّ فلن تنفع مع

(٤٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق.

أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ١٥٠/٧.

(٤٣) الكشاف: للزمخشري ٨٣/٢.

(٤٤) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ١٥٠/٧، ومعالم التنزيل: للبغوي ٢١٠/٣، والتفسير الكبير: للرازي ١٨٩/١٤، والبحر المحييط: لأبي

حيان ٧٠٠/٤.

الكفر طاعة، وربما صغرت السيئة كسائر ما يقع من المؤمنين المكلفين من الذنوب والمعاصي التي إن لم يغفرها الله تعالى فإنه لن يجازي عليها إلا بمثلها تكراً منه وتفضلاً على عباده.

ومن لطائف الشرط في هذه الآية أنه قال في فعل الشرط مع الفريقين: (من جاء) ولم يقل: من عمل؛ ليُعلم أن النظر إلى ما حُتم به، وقبض عليه دون ما وجد منه من العمل؛ فكأنه قال: من ختم له بالحسنة له عشر أمثالها، ومن ختم له بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون^(٤٥).

ويؤيد ما ورد في الجوابين قول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: قال: "إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله عز وجل"^(٤٦).

وبهذا يتضح لنا كيف تغيرت المعاني بالتبادل بين الجوابين، وكيف ارتبط اختيار الجواب بمعانٍ خفية طواها التركيب تحت عباءته السابعة.

ومن تبادل الجواب من الجملة الاسمية المقترنة بالفاء، إلى الجملة الفعلية المقصورة بإنما، قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٤٧). اشتملت هذه الآية على تركيبٍ شرط تبادل جوابهما فجاء الأول جملة اسمية حذف مبتدؤها (فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ)، وجاء الثاني جملة فعلية مقصورة (إِنَّمَا) (وَمَنْ ضَلَّٰ فإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا).

وقد جاء جواب الجملة الأولى جملة اسمية والتقدير فهدها لنفسه، ونفعه يعود إليه^(٤٨) وإنما أتى بالجملة الأولى اسمية دالة على الثبوت لطمأننة المهتدي على أجره وأنه لن يضيع منه شيء، وأن ما له مما ينفعه فبهداية الله وتوفيقه، وهذا حكم عام لكل مكلف، وابتدئ فيه بخطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه إذا دخل تحته مع جلالة محله كان غيره أولى به^(٤٩).

(٤٥) البحر المحيط: لأبي حيان ٧٠١/٤.

(٤٦) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم): لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ط) (د.ت) باب (إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب) حديث رقم (١١٧/١)(٢٠٥).

(٤٧) سورة الزمر: الآية ٤١.

(٤٨) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي ٤٥٥/٢٦.

(٤٩) البحر المحيط: لأبي حيان ٥٦٤/٨.

ثم أتى بجواب الشرط في الجملة الثانية جملة فعلية مقصورة ب(إنما) الموضوعية لما لا يجمله المخاطب أو ما ينزل منزلته، والتي تأتي إثباتا لما يذكر بعدها، ونفيا لما سواه، ومثله قوله تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ) الذي معناه: ما حرم عليكم إلا الميتة^(٥٠)، وهذا يعني أن جواب الشرط لما جاء مصدرا بإنما أفاد التوكيد بأن من ضل فلن يضل إلا على نفسه^(٥١). ويرى الإمام ابن عاشور أن صيغة القصر في قوله: (ومن ضل فإنما يضل عليها) "لتنزيل الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أسفه على ضلالهم المفضي بهم إلى العذاب منزلة من يعود عليه من ضلالهم ضرر، فخوطب بصيغة القصر، وهو قصر قلب على خلاف مقتضى الظاهر"^(٥٢).

ولذا ذيل الآية كلها بجملة (وما أنت عليهم بوكيل) المعطوفة على جملة (فمن اهتدى فلنفسه)؛ أي لست مأمورا بإرغامهم على الاهتداء، فصيح هذا الخبر في جملة اسمية للدلالة على ثبات حكم هذا النفي^(٥٣).

وأرى - وعند الله العلم كله - أن مجيء جواب الشرط جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار غير مقصورة في الجملة الأولى بل فيه إلمح إلى أن أجر الهدى وفضله يكون للمهتدي من غير قصر أجره عليه؛ إذ ربما يشترك غيره معه في أجر هداة، بخلاف الظلال الذي لا يكون إلا على صاحبه نفسه، وذلك أن الحسنة بعشر أمثالها ويزيد الله لمن يشاء، والسيئة بمثلها وقد يغفو ربنا ويصفح تفضلا منه وكرما، والذي ألمح إلى هذا هو التبادل بين الجوابين بترك القصر في الأول والقصر في الثاني.

خاتمة البحث

لقد حاول هذا البحث أن يقدم تحليلا لبناء أسلوب الشرط الذي تكررت فيه جملتنا شرط، عن طريق تبادل الجوابين في الجملتين، والفروق الدلالية بينهما، ومدى اتساق هذا التبادل مع القواعد المقررة عند النحاة، وقد تكشفت لي من خلال هذا البحث جملة نتائج أهمها ما يأتي:

(٥٠) الطراز: للعلوي ١٠٧/٢.

(٥١) البحر المحيط: لأبي حيان ٥٦٥/٨.

(٥٢) التحرير و التنوير ٢٤/٢٢.

(٥٣) المرجع السابق : نفسه.

- ١- أنَّ ثمة ارتباطاً وثيقاً بين جملة الجواب وجملة الشرط؛ إذ إنَّ كليهما مرتبطة بالأخرى ومتعلقة عليها، وهذا يعني أنَّ تبادلَ جوابين في تركيب شرط متجاورين يدل على مرونة القواعد النحوية واتساعها، كما يدل على قيم تعبيرية مقصودة.
- ٢- أنَّ التبادل بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية في جوابات الشرط يفيد ما تفيدُه دلالة الجملة المعبر عنها في الجواب، فلو كانت اسمية أفادت الثبوت في المحمل، ولو كانت فعلية أفادت التجدد في المحمل.
- ٣- أنَّ الموازنة بين جملي جواب الشرط يفيد اشتراكهما في معنى سياقي عام ومعنى تركيبى خاص، وهذا يدل على المناسبة الدقيقة بين التركيب والعلاقات الدلالية التي تربطه بما قبله وما بعده.
- ٤- أنَّ الخروج عمّا يبدو أصلاً في التراكيب النحوية يتم بناء على اختيارات لغوية واعية، ورائها أهداف معنوية مقصودة.
- ٥- أنَّ تحليل التراكيب النحوية لا يقتصر على كتب النحو بل تشاركها فيه كتب الدلالة والبلاغة والتفسير.

المصادر والمراجع

- ١- الإتيان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م
- ٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ط) (د.ت).
- ٣- إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: ١٤٠٣هـ) طبعة دار الإرشاد للشتون الجامعية حمص- سورية ودار اليمامة، دمشق- بيروت، ودار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ.
- ٤- الإيضاح في علوم البلاغة: لأبي المعالي جلال الدين القزويني محمد بن عبد الرحمن بن عمر (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة دار الجليل - بيروت، الطبعة الثالثة.
- ٥- البحر المحيظ في التفسير: لأبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق. صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ.

- ٦- البرهان في علوم القرآن: لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه- القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.
- ٧- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) للشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) طبعة الدار التونسية للنشر- تونس ١٩٨٤هـ.
- ٨- تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق. عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- ٩- تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن) لمحيي السنة؛ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ) تحقيق. محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع- السعودية، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- ١٠- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق. أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، طبعة دار الكتب المصرية- القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ١١- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): لأبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، تحقيق د. مجدي باسلوم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- ١٢- دلائل الإعجاز: لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) تحقيق الشيخ . محمود محمد شاكر، طبعة مطبعة المدني- القاهرة، دار المدني- جدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
- ١٣- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: لابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الهمداني المصري (ت: ٧٦٩هـ)، تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار التراث- القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م
- ١٤- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: لرضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي (ت: ٦٨٦هـ) تصحيح وتعليق. يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي- ليبيا، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- ١٥- شرح قطر الندى وبل الصدى: لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد ابن عبد الله ابن يوسف بن هشام (ت: ٧٦١هـ) تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار الخیر السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٠- ١٩٩٠م.

- ١٦- شرح المفصل للزمخشري: لأبي البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش ويا بن الصانع (ت: ٦٤٣هـ)، قدم له د. إميل بديع يعقوب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
- ١٧- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم): لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ط) (د.ت)
- ١٨- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: للعلوي يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني الطالبي (ت: ١٧٤٥هـ)، طبعة المكتبة العنصرية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
- ١٩- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لجار الله أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق. عبد الرزاق المهدي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- ٢٠- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء الكفوي أيوب بن موسى الحسيني القريفي الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ) تحقيق. عدنان درويش- محمد المصري طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت، (د.ط) (د.ت).
- ٢١- اللباب في علل الإعراب والبناء: لمحب الدين البغدادي أبي البقاء عبد الله بن الحسين ابن عبد الله العكبري (ت: ٦١٦هـ)، تحقيق غازي مختار طليعات، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
- ٢٢- مختصر المعاني لشرح تلخيص المفتاح: لسعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت: ٧٩٣هـ) طبعة دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- ٢٣- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بخطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.